المحاضرة السابعة حول:

العلوم السائدة في الجزائر أثناء الحكم العثماني

العلوم السائدة في الجزائر أثناء الحكم العثماني:

إذا كان الحكم على إزدهار الحياة الثقافية في عصر من العصور يقوم على تقدم العلوم والفنون، فإن العهد العثماني في الجزائر يعتبر فقيرا في هذه الناحية، فقد عرفت هذه المرحلة بعناية واهتمام العلماء بالعلوم الشرعية والآداب والتواريخ المحلية والتصوف، ولكن عنايتهم أو اهتمامهم بتدوين الطب والحساب والفلك والرسم والعمارة والموسيقى قليلا (العلوم العقلية)؛ ذلك لأن ما كان متداولا من هذه العلوم والفنون لم يخرج عن تقليد السابقين، ولم يكن ممارسوه يتمتعون بالاستقلال العقلي وروح الابتكار، ومن بين العلوم المتداولة في هاته الفترة مايلي:

01/- العلوم العقلية:

بالقياس إلى إنتاج الجزائر في التصوف وفي التاريخ وحتى في الأدب فإن انتاجها في العلوم الرياضية والطبية يعد قليلا فلم يكن هناك علماء طبيعيون أو أطباء بارزون، كما كان هناك فقهاء ومتصوفة بارزون، إلا أن بعض الأسماء قد إلتصقت بها مهنة الطب كإبن فشوش أو التأليف فيه

كالثغري والسنوسي وهناك بعض الأسماء إرتبطت بعلم الحساب والفلك الحباك و ابن القنفذ.

ولكن هؤلاء وأولئك لم يختصوا بالحساب أو الطب كما اختص الونشريبي في الفقه والثعالبي في التصوف، فقد ألف إبراهيم ابن أحمد الثغري التلمساني معجما صغيرا في الطب رتبة على حروف المعجم وهو عبارة عن قائمة بأسماء الأعشاب ونحوها؛ مما كان يتداوى به العرب؛ حيث يذكر لنا الدواء ثم يذكر منافعه، وللثغري أيضا رسالة أخرى في الطب وهي في الأدوية ومنافعها، ولا ندري هل هي متصلة أو مكملة للمعجم.

والظاهر أنهما عملان مختلفان لأن طريقة كل منهما مختلفة، وقد قسم هذه الرسالة إلى أبواب بعناوين معينة مثلا: يذكر باب الاكتحال وباب صفة المعالجين وباب سفوف يمنع النخمة.

وجاء في ورقة تشب العنوان الأدوية النافعة من برد الدماغ وهي مشتملة على أضمدة وأدهان وغيرها، أما عن الإكتحال فقد جاء في الكتاب أن من اكتحل بالينسون ينفع من السل المتقدم وذكر أيضا في باب صفة المعالجين خصائص وصفات معجون الجزر وفوائده.

واشتملت الرسالة أيضا على أسماء لأدوية : العين وأدوية الأسنان... ولم الثغري طبيبا وإنما كان متطببا. (يمارس الطب دون دراسته)

وبشبه في اهتمامه وطريقته عبد الرزاق ابن حمدوش في كتابه الجوهر المكنون الذي ألفه في القرن 12 هـ الموافق لـ: 18 م وفي القرن 9هـ 15م اشتهر أحد علماء بجاية بالتطبب وهو أبو الفضل محمد المشدالي، حيث كان الناس يلجأون إليه طلبا للدواء، ومع ذلك لا نعرف أن المشدالي قد ترك تأليفا في الطب، ولدينا أيضا محمد بن يوسف السنوسي الذي عرف بالزهد في العقائد أبى إلا أن يسهم في علم الطب، حيث ربط بين علم الطب والدين بل إن موضوع الطب الذي عالجه هو مجموعة من الأحاديث الشريفة، واعتبر شطر العلم معتمدا في ذلك على الحديث الشريف.

العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان، وقد قصد السنوسي بالعلم الأخير علم الطب، ولذلك ألف فيه رسالة صغيرة يعتمد فيها على شرح مجموعة من الأحاديث النبوية مثل: المعدة بيت الداء كما شرح الجملة الأخرى" الحمية راس الدواء"، ووهضم في الكبد وهضم في سائد الأعضاء، وأيضا ما كتبه العلامة: السنوسي وابن وكري وابن الحاج التيجاني وهو القدوة العلامة الطبيب الحكيم أبو عبد الله بن الحاج بن عامر العساني السليماني

صاحب كتاب شمو من الأنوار وكثرو من كنوز الأسرار، وبالإضافة إلى الطب ساهم بعض الجزائريين في علوم أخرى كالحساب الذي له صلة قوية بعلم الفرائض" المواريث" ومن هؤلاء : ابن القنفذ الذي ألف كتابا في الحساب.

وهناك عالم قسنطيني أخر اشتهر بعلم الحساب وهو أحمد بن يوسف، ولكن شهرته كانت في التدريس وليس في التأليف، ونجد أيضا علم الفلك والميقات فألف إبن القنفد شرحا لكتاب ابن أبي الرحال في الفلك والتنجيم، ثم رفعه إلى أحد الوزراء في تلك الفترة لاهتمام هذا الوزير بالعلوم العقلية.

كما يعتبر الحباك وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحي من أشهر ما ألف في علم الاسطرلاب الهندسة، فله منظومة في الاسطرلاب؛ حيث أصبحو يعتمدون عليها في تقديم الشروح والتعاليق ويلجأون إليها في التدريس واسم هذه المنظوومة :" بغية الطلاب علم الاسطرلاب" وقسم الحباك منظومته إلى عناوين مفصلة وهي أجزاء الاسطرلاب ورسومه وأخذ الارتفاع ومطالع البروج ومعرفة أصابع الظل وأقدامه والأوقات الخمسة والماضي من النهار والليل وما يلحق بهما والجهات الأربعة ومعرفة الماضي من النهار بالجيوب، كما ألف كذلك في شكل آخر من الأشكال الهندسية وهو الذي يسمونه بالربع المجيب وسمي كتابه فيه" نيل المطلوب في العمل بربع الجيوب" حيث جعل

هذا الكتاب في مقدمة وعشرة أبواب، وكذلك هناك علوم أخرى ألف فيهها الجزائريون وإشتهروا بها في التدريس. خلال القرن 09هـ 15م ومنها علم المنطق، وقدد نسب إلى أحمد بن يونس القسنطيني أنه كان أستاذ في المنطق وألف أبو الفضل المشدالي شرحا على جمل البونجي في المنطق، وقيل أنه قام بذلك ملخصا ومحققا لشروح من سبقوه عليها مثل ابنن مرزوق- السعيد العقباني- الشريف التلمساني وابن واصل الحموي، ومن الذين كتبوا في المنطق محمد بن يوسف السنوسي الذي عرف بكتابة المختتصر.

كما ألف ابن القنفد عدة مؤلفات في المنطق"مثل إيضاح المعاني"و " تلخيص العمل" وولمغيلي مؤلفات وآثار في المنطق منها كتاب شرح الجمل ومما لا شك فيه أن هناك آخرين قد اهتمو بعلم المنطق لأننا لاحظظنا أن علماء هذا العهد كانوا بارزين في مجالات علمية متعددة.

- العلوم النقلية:

وتضمنت العلوم الشرعية مثل علم التفسير، القراءات، الحديث، الفقه.

أ- علم التفسير:

وتضمن الجانبين: جانب التدريس وجانب التأليف، وبفضل تتفسير عبد الرحمان الثعالبي المعروف باسم جواهر الحساب للثعالبي وصل إلينا تفسير القرآن الكريم مكتوب من القرن09 هـ، بالإضافة إلى ما جاء عن أحمد الونشريسي وإبنه عبد الواحد اللذان لم يعرف عنهما التأليف في التفسير ومن العلماء الذين ألفوا في علم التفسير نجد أحمد البوني الحسين العنابي وكان للبوني كتاب بعنوان الدر النظيم في فصل آيات القرآن الكريم.

ب- القراءات:

اشتهر علماء الجزائر بتدريس القراءات أكثر من التاليف فيها واعتمد أغلبهم في ذلك على كتاب" مورد الضمآن" لشروحات محمد شقرون ابن أحمد المغراوي المعرف بالوهراني.

ج- الحديث:

يعد علم الحديث من العلوم التي أنتج فيها علماء الجزائر الكثير فقد اعتنوا بهذا العلم تأليفا وتدريسا ورواية وإجازة، فقد كان معظم العلماء والمدرسون حفاظا مهرة وكانت عنايتهم " بتصحيح البخاري " التي فاقت كل عناية فهو الكتاب الأكثر تداولا فكتبوا عنه الشروح وتدارسوه وقد تولى عبد

الرزاق بن حميدوش سرد صحيح البخاري في الجامع الكبير بالعاصمة ومن بين العلماء الذين اهتموا بالحديث نجد محمد بن مرزوق التلمساني الحفيد، بالإضافة إلى كتاب مختصر فتح الباري للشيخ عبد القادر المجاجي.

د- الفقه:

عندما نتكلم عن الإنتاج الفقهي في الجزائر فمن الطبيعي أن نركز على إنتاج الفقه المالكي، ومع وجود العثمانيين في الجزائر ظهر المذهب الحنفي ومن بين أبرز من اهتم بالفقه مجموعة من العائلات التي تبنت العلم مذهبا لها، مثل عائلة الونشرسي وعائلة المغيلي وععائلة المقري، وقد ظلت " مازونا" تنافس " تلمسان " في ميدان الفقه.

ومن أبرز خريجي مدرستها:" أبوراس الناصري" وبالبرغم من الجو المحافظ الذي كان يسود الجزائر خلال العهد العثماني إلا أن الفقهاء قد كانوا متحررين (لم يكونو مقيدين) في تناولهم للمسائل الفقهية ولقضايا العصر.

قائمة المراجع المعتمدة في المحاضرة:

01/- أبو القاسم سعدالله،(1998)، تاريخ الجزائر الثقافي ، الطبعة 01، الجـزء الثاني، دار العرب الاسلامي، بيروت، لبنان.

02/- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة الحياة، 1965.

03/- صالح فركوس ، تاريخ الثقافة الجزائريـة مـن العهـد الفنيقـي إلـى غايـة الإسـتقلال 814(ق م1962/م)،ج1، إيـدكوم للنشـر والتوزيـع، الجزائـر، د.ط، 2013

04/- أحمد المغراوي، باقة السوسات في التعريف بحاضـرة تلمسـان عاصـمة دولة بني زيان"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، د.ت.